مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

(٧)

سحاب وضباب

الطبعة الأولى المعدّلة

دار المعارف

ناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج م . ع

«قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَأَعبُدُ مَا تَعبُدُونَ ، وَلاَأَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعبُدُ ، وَلاَ أَنا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» .

بِهٰذَا أَمَرَ اللهُ مُحَمَّداً أَنْ يَرُدَّ عَلَى نَفَرٍ مِنْ قَومِهِ الْمُشْرِكِينَ ، حِينَ أَتَوْهُ يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ آخِرَ مَا فِى جَعبَتِهِمْ مِنَ الْعُرُوضِ إِذْ قَالُوا لَهُ :

يَا مُحَمَّدُ ، هَلُمَّ ، فَلْنَعبُدْ مَا تَعبُد ، وَلتَعبُد مَا نَعبُدُ ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى تَعبُدُ

خَيْراً مِمَّا نَعبدُ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا بِحظِّنَا مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ مَا نَعبُدُ خَيراً مِمَّا تَعبُدُ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ . فَرَدَّ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيهِ رَبُّهُ ، وَبيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ لَيسَ لَغْواً وَلا لَهْواً وَلا لَعِباً ، وَإِنَّمَا هُوَ دِينٌ حَقٌّ قَوِيمٌ ، لاَ يَحِقُّ عَلَيْهِ تَبْدِيلٌ ، وَلاَ يَجُوزُ فِيهِ تَغْيِيرٌ ، وَلاَ يَرْقَى إِلَى قُدْسِيَّتِهِ شُبْهٌ وَلا تَضْلِيلٌ .

وَأَعيَتِ الْمُشْرِكِينَ الْحِيَلُ فى أَمْرِ مُحَمَّدٍ كَىْ يرْجِعُوهُ عَنْ تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ ، وَيحِيدُوا بِهِ عَنِ الْمُضِىِّ فى دَعْوتِهِ ، وَحَارُوا فِيمَا يَفْعَلُونَ مَعَهُ ، وَفيمَا يَصْنَعُونَ . . . ! ! وَلٰكِنْ . . هَا قَدْ مَاتَ أَبو طَالِبٍ حَامِى مُحَمَّدٍ ، وَشَادُّ أَزْرِهِ ، وَالجَامِعُ لِقُلُوبِ عَشِيرَتِهِ حَوْلَهُ ، وَالْمَانِعُ لأَذَى قَومِهِ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ .

إِذَنْ ، قَدْ خَلَتِ الطَّرِيقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، وَصَفَا الْجوُّ لِيَنْفُثُوا فِيهِ سُمُومَهُم . فَإِلَى الْحَرْبِ الْعَوان الَّتى لا هَوَادَةَ فِيهَا ، وَإِلَى الإِيذَاءِ الذِى لا رَحْمَةَ مَعَهُ . وَهَبَّ الْمُشْرِكونَ يَتبارَوْنَ فى إِيذَاءِ رَسُولِ الله ، وَالنَّيْلِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوتِهِ بِما يَكرَهُ ، حتى بَلَغَ بِسُفهائِهِمُ السَّفَهُ أَنْ أَلْقَى أَحَدُهُمْ عَلَيهِ وَهُوَ يُصَلِّى

بِالْكَعبَةِ رَحِمَ شَاةٍ ، فَمَا زَادَ مُحَمَّدٌ عَلَى أَنْ أَخَذَهُ بِيَدِهِ ، وَأَلْقَاهُ بَعِيداً ، وَهُوَ يَقُولُ : أَىُّ جِوارٍ هٰذَا يَا بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ ؟ ! !

وَاجْتَرَأَ آخَرُ فَرَمَى عَلَى رَأْسِهِ تُرَاباً ، فَدَخَلَ مُحَمَّدٌ إِلى بيتِهِ وَالتُّرابُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَامَتْ إِليهِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ تُزِيلُهُ عَنْ رَأْسِهِ ، وَدُمُوعُها تَنهَمِرُ حُزْناً لِمَا يَلْقَى أَبوها رَسُولُ اللهِ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ وَمَا يَنَالُهُ مِنْ بَغْى سُفَهَائِهِمْ . فَيَقُولُ لَهَا أَبوهَا مُوَاسِياً : لاتبْكِى يَا بُنَيَّةُ ، فَإِنَّ اللهَ مَانِعٌ أَباكِ .

أَمَّا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى - وَهُوَ أَبو لَهَبٍ - فَقَدْ هَادَنَ مُحَمَّداً بَعْدَ وَفَاةِ أَبِى طَالِبٍ بَعْضَ الوَقْتِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى إِيذَائِهِ لَهُ عَلَى وَجْهٍ أَشَدَّ وَأَنْكَى مِمَّا كَانَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَالَ مُحَمَّداً مِنْهُ وَمِنَ امرَأَتِهِ أُمِّ جَمِيلٍ مِنَ الشِّدَّةِ مَا يَسُوءُ وَمَا يُكرَهُ .

أَمَّا أَبو جَهْلٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَرَصَّدُ النَّبِىَّ فى غَدَواتِهِ وَرَوْحَاتِهِ : فَيُحَرِّضُ عَلَيْهِ السُّفَهَاءَ ، فَيَنَالُونَ مِنْهُ ، وَيُغْرِى بِهِ طِوَالَ الأَلْسِنَةِ ، فَيَسُبُّونَهُ ، وَيَتَهَكَّمُونَ عَلَيهِ ، أَوْ يَجْلِسُ فى جَمْعٍ مِنْ صَعَالِيكِ قَومِهِ . فَإِذَا جَاءَ مُحَمَّدٌ لِلصَّلاَةِ أَوِ

الطَّوافِ هَمُّوا بِهِ يُرِيدُونَ ضَرْبَهُ ، وَيَبْغُونَ الْفَتْكَ بِهِ ، فَيَصُدُّهُمْ عَنْهُ أَبو بكْرٍ ، وَيَنهَاهُم مُسْتَنكِراً وَهو يَقُولُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ الله ! ! وَقَدْ جَاءَكُمْ بِبيِّناتٍ مِنْ عِنْدِ الله ؟ !

فَحِينَئِذٍ لاَ يَسْلَمُ أَبو بكْرٍ مِنْ إِيذَاءِ الْقَومِ لَهُ ، فَيلْتَفُّونَ حَوْلَهُ : يَصُكُّونَهُ ، وَيَضْرِبُونَهُ ، كَىْ لاَ يَقِفَ حَائِلاً بَينهُمْ وَبَيْنَ مَا يَبغُونَ مِنَ الْفَتْكِ بِمُحَمَّدٍ ، وَلكِنَّهُ كَانَ لاَ يَمْتَنِعُ عَنْ تَعْرِيضِ نَفسِهِ للأَذَى فى سَبِيلِ حِمَايَةِ مُحَمَّدٍ ، وَلاَ يَنِى عَنْ مُقَارَعَةِ الْمُشْرِكِينَ فى سَبِيلِ الذَّوْدِ عَنِ الرَّسُولِ ، بَلْ كَانَ يَسْتَعذِبُ أَنْ يُؤْذَى وَهُو يُدافِعُ عَنْ نَبِيِّهِ وَحَبِيبِهِ .

أَمَّا مُحَمَّدٌ فكَانَ لاَ يَكُفُّ عَنْ أَن يُرَدِّدَ آسِفاً :

وَالله مَا نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنِّى شَيْئاً أَكْرَهُهُ حتى مَاتَ أَبو طَالِبٍ !

وَشَقٌّ عَلَى أَتْباعِ مُحَمَّدٍ مَا كانَ يُلاقِى نَبِيُّهُمْ مِنْ سَفَهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَمَا يَتَحمَّلُ مِنْ بَذَاءَتِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ ، فَيجْتَمِعُ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ الأَمَرَّانِ : حُزْنُهُ عَلَى أَبِى طَالِبٍ وَخَدِيجَةَ ، وَحُزْنُهُ عَلَى مَا تَنَالُهُ بِهِ قُرَيْشٌ مِنْ مَهَانَةٍ . وَكَانُوا لِقِلَّتِهِمْ - بَعْدَ أَنْ خَرَجَ نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ مُهاجِراً إِلَى الْحَبَشَةِ - لاَ يَمْلِكُونَ إِزَاءَ كَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَفْعلُوا شَيْئاً ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيْنَ

هُجُومِهِمْ عَلَى مُحَمَّدٍ إِلاَّ أَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ بِقُوَّةِ سَوَاعِدِهِمْ مَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَمْنَعُوا .

وَكَانَتِ النِّسَاءُ الْمُسْلِمَاتُ يَحْزَنَّ لِمَا يَنَالُهُ ، وَيَتَوَجَّعْنَ لِمَا يَسُوءُهُ . فَأَتَتِ الرَّسُولَ يَوْماً خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَقَالَتْ لَهُ :

يَا رَسُولَ الله ، لِمَ لاَ تَتَزَوَّجُ مَنْ تُعَوِّضُكَ عَنْ خَدِيجَةَ بَعْضَ حُنُوِّهَا وَعَطْفِهَا ؟ !

قَالَ مُحَمَّدٌ : وَمَنْ تَعْنِينَ يَا بِنْتَ حَكِيمٍ ؟

قَالَتْ : إِنْ شِئْتَ بِكْراً ، وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّباً .

قَالَ : فَمَنِ الْبِكْرُ ؟

قَالَتْ : أَحَقُّ خَلْقِ الله بِكَ ، بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ .

قَالَ : وَمَنِ الثَّيِّبُ ؟

قَالَتْ : سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ . قَدْ آمَنَتْ بِكَ ، وَاتَّبَعَتْكَ عَلَى مَا تَقُولُ ، وَقَدْ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا بَعْدَ أَنْ عَادَ مِنْ هِجْرَةِ الْحَبَشَةِ .

قَالَ : فَاذْهَبِى فَاذْكُرِيهِمَا عَلَىَّ .

وَذَهَبَتْ خَوْلَةُ إِلَى سَوْدَةَ فَقالتْ لَهَا :

مَاذَا أَدْخَلَ الله عَلَيْكِ مِنَ الخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ ؟ !

فَاسْتَعْجَبَتْ سَوْدَةُ ، وَسَأَلَتْهَا عَمَّا تُرِيدُ بِقَوْلِهَا ، فَقَالَتْ :

أَرْسَلَنِى رَسُولُ الله لأَخْطُبَكِ عَلَيْهِ .

قَالَتْ سَودَةُ مُسْتَبْشِرَةً :

وَدِدْتُ ! ! اذْهَبِى لأَبِى فاذكرى ذلِكَ لَهُ .

فلمَّا ذَهَبَتْ خَوْلَةُ لأَبِيهَا ، وأَخْبَرَتْهُ قَالَ : كُفءٌ كَرِيمٌ .

وَذَهَبَتْ خَوْلَةُ إِلَى أُمِّ رُومَانَ ، أُمِّ عَائِشَةَ وَزَوْجَةِ أَبِى بَكْر ، فَقَالَتْ لَهَا :

ماذا أَدْخَلَ الله عَلَيْكُمْ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالْخَيْر ؟ ! قَدْ أَرْسَلَنِى رَسُولُ الله أَخْطُبُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ . قَالَتْ : خطْبَةٌ مُبَارَكَة إِنْ شَاءَ الله ، انْتَظِرِى حَتَّى يَأْتِىَ أَبُو بَكْرٍ .

وَقَبِلَ أَبُو بَكْرٍ خِطْبَةَ رَسُولِ اللهِ لاِبْنَتِهِ بِسُرُورٍ وَتَرْحِيبٍ.

وَهٰكَذَا خَطَبَتْ خَوْلَةُ لِرَسُولِ اللهِ سَوْدَةَ وَعَائِشَةَ وَهٰكَذَا عَزَّزَ الرَّسُولُ بِالْمُصَاهَرَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَتْبَاعِهِ الْمُسْلِمِينَ.

وَعُقِدَ الْعَقْدَانِ. وَزُفَّتْ سَوْدَةُ إِلَى الرَّسُولِ. أَمَّا عَائِشَةُ فَكَانَتْ لاَ تَزَالُ طِفْلَةً حَدَثَةً صَغِيرَةً. فَلَمْ تُزَفَّ إِلَيْهِ إِلاَّ بَعْدَ زَمَنٍ مِنْ ذٰلِكَ الْحِينِ.

وكَانَ إِيذَاءُ الْمُشْرِكِين قدْ تَضَاعَفَ عَلَى الرَّسُولِ وَأَتْبَاعِهِ ، فَقَدْ آلَتْ قُرَيْشٌ عَلَى نَفْسِهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِى طَالِبٍ أَلاَّ تَكُفَّ عَنْ مُحَمَّدٍ حَتَّى ترْجِعَهُ عَنْ دَعْوَتِهِ أَوْ تَقْتُلَهُ ، وَأَلاَّ تَكُفَّ عَنْ أَتْبَاعِهِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَتُعِيدَهُمْ إِلَى دِينِهِمُ الْقَدِيمِ ، فَلَمَّا ضَاقَ مُحَمَّدٌ بِشِدَّتِهِمْ ، وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ مَسَاءَاتُهُمْ - خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ حَزِيناً ، مَكْرُوباً ، وَحِيداً ، لاَ يَعْلَمُ بِمَخْرَجِهِ

أَحَدٌ ، يَبْغِى عِنْدَ أَهْلِهَا النُّصْرَةَ ، وَيَرْغَبُ أَن يَجِدَ فى جِوَارِهِمْ خَيْرَ جِوَار .

وَلٰكِنَّ أَهْلَهَا لَمْ يَرْغَبُوا فى نُصْرَتِهِ ، وَلَمْ يَرْضَوْا أَن يَكُونَ فى جِوَارِهِم ، بَلْ كَذَّبُوهُ فى نُبُوَّتِهِ ، وَاتَّهَمُوهُ فى دَعْوَتِهِ ، وَرَدُّوهُ شَرَّ رَدٍّ ، وَأَعْطَوْهُ أَسْوَأَ جَوَابٍ .

وَكَانَ خَوْفُهُمْ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ مِثْلَ خَوْفِ قُرَيْش . فَقَدْ خَشُوا هُمْ أَيْضاً عَلَى مَكَانَةِ بَلَدِهِمْ حَيْثُ كَانَ الطَّائِفُ مَصِيفَ أَهْلِ الْيَسار مِنْ قُرَيْش لِاعْتِدَالِ هَوَائِهِ ، وَوَفْرَةِ كُرُومِهِ وَأَعْنَابِهِ ، وَلِمَكَانَةِ صَنَمِهَا الْمَشْهُور عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَالَّذِى يُسَمُّونَهُ اللاَّتَ ، فَقَدْ كَانَ يَأْتِى إِلَيْهِ النَّاسُ لِلطَّوَافِ وَالْحَجِّ كَمَا كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى الْكَعْبَةِ .

وَكَرِهَ مُحَمَّدٌ أَنْ يَبْلُغَ أَهْلَ مَكَّةَ مَا لاَقَى مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ ، فَيَشْمَتُوا بِهِ ، وَيَزِيدُوا فى إِيذَائِهِ ، فَقَالَ لِبَعْضِ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَهُوَ يَنْصَرِفُ عَنْهُمْ :

إِذَا كُنْتُمْ قَدْ رَدَدْتُمُونِى فَلا أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَكْتُمُوا أَمْرِى .

وَلٰكِنَّهُمْ أَبَوْا هٰذا أَيْضاً عَلَيْهِ ، وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَغِلْمَانَهُمْ يُشَيِّعُونَهُ

بِالسَّبِّ ، وَيَرْجُمُونَ قَدَمَيْهِ بِالأَحْجَارِ ، حَتَّى اخْتَضَبَتْ نَعْلاَهُ بِالدِّمَاءِ . . ! !

آللهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا لاَقَيْتَ فِى سَبِيلِ دَعْوَةِ رَبِّكَ ، وَمَا تَحَمَّلْتَ فِى سَبِيلِ نَشْرِهَا ! ! !

وَسَارَ مُحَمَّدٌ وَسَارَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَطْرَافِ الْقَرْيَةِ احْتَمَى مِنْ إِيذَاءِ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ بِبُسْتَانٍ كَبِيرٍ كَثُرَ فِيهِ شَجَرُ الْكَرْمِ ، وَتَتَدَلَّى مِنْهُ قُطُوفُ الأَعْنَابِ ، فَتَرَكَهُ السُّفَهَاءُ ، وَكَرُّوا عَنْهُ عَائِدِينَ ! !

وَرَفَعَ مُحَمَّدٌ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ شَاكِياً شِدَّةَ مَا يُلاَقِى ، رَاجِياً رَحْمَةَ اللهِ ، طَالِباً عَفْوَهُ ، قَائِلاً :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِى ، وَقِلَّةَ حِيلَتِى ، وَهَوَانِى عَلَى النَّاسِ . يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّى ! إِلَى مَنْ تَكِلُنِى : إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى ؟ ! إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَىَّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِى ، وَلٰكِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِى ! أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِى أَشْرَقَتْ لَهُ

الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، مِنْ أَن تُنْزِلَ بِى غَضَبَكَ ، أَوْ تُحِلَّ عَلَىَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ! وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ .

وكانَ هٰذَا الْبُسْتَانُ الَّذِى احْتَمَى بِهِ رَسُولُ الله مِلْكاً لأَخَوَيْنِ ، هُمَا : عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ ، رَأَيَا مَا فِيهِ مُحَمَّدٌ مِنْ ضِيقٍ وَكَرْبٍ ، وَشَاهَدَا مَا فَعَلَ بِهِ سُفَهَاءُ قَوْمِهِمَا ، فَأَخَذَتْهُمَا الرَّحْمَةُ بِهِ ، وَتَحَرَّكَتْ نَفْسُهُمَا شَفَقَةً عَلَيْهِ ، فَاسْتَدْعَيَا غُلاماً لَهُمَا نَصْرَانِيًّا ، اسْمُهُ عَدَّاسٌ ، وَقَالاَ لَهُ :

يَا عَدَّاسُ ، خُذْ قِطْفاً مِنْ عِنَبِ الْبُسْتَانِ ، وَضَعْهُ فى طَبَقٍ ، وَاذْهَبْ بِهِ إِلَى هٰذَا الرَّجُلِ الْجَالِسِ بِجَانِبِ الْجِدَارِ ، وَادْعُهُ لِيَأْكُلَ مِنْهُ .

فَفَعَلَ عَدَّاسٌ مَا أُمِرَ ، وَذَهَبَ بِالْعِنَبِ ، فَوَضَعَهُ أَمَامَ الرَّسُولِ ، وَدَعَاهُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وَضَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهُ فِيهِ قَالَ : بِاسْمِ الله !

ثُمَّ أَكَلَ . فَنَظَرَ عَدَّاسٌ إِلَى مُحَمَّدٌ مُسْتَعْجِباً ، وَقَالَ :

والله إِنَّ هٰذا الْكَلاَمَ لاَ يَقُولُهُ أَهْلُ هٰذِهِ الْبِلاَدِ !

فَسَأَلَهُ مُحَمَّدٌ : وَمِنْ أَىِّ الْبِلاَدِ أَنْتَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ وَمَا اسْمُكَ ؟ أَجَابَ : أَنَا مِنْ أَهْلِ نِينَوَى ، وَدِينِى النَّصْرَانِيَّة ، وَاسْمِى عَدَّاسٌ .

قَالَ الرَّسُولُ : أَمِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ : يُونُسَ بْنَ مَتَّى ؟

فَازْدَادَتْ دهْشَةُ عَدَّاسٍ وَقَالَ : وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى ؟ ! !

قَالَ مُحَمَّدٌ : ذَاكَ أَخِى ، كَانَ نَبِيًّا ، وأَنَا نَبِىٌّ .

فَأَكَبَّ عَدَّاس عَلَى مُحَمَّدٍ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ وَعُتْبَةُ وشَيْبَةُ يَرَيَانِ مَا يَفْعَلُ غُلاَمُهُمَا ، وَيَتَعَجَّبَانِ مِنْ أَمْرِهِ ، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِمَا قَالاَ لَهُ :

وَيْلَكَ يَا عَدَّاسُ ! مَالَكَ تُقَبِّلُ رَأْسَ هٰذا الرَّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ ؟ ! !

قَالَ : يَا سَيِّدِى ، مَا فى الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ هٰذا الرَّجُلِ ، لَقَدْ خَبَّرَنِى بِأَمْرٍ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ نَبِىٌّ .

فَقَالاَ : وَيْحَكَ يَا عَدَّاسُ ! لاَ يَصْرِفَنَّكَ هٰذَا الرَّجُلُ عَنْ دِينِكَ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ .

وَغَادَرَ مُحَمَّدٌ الطَّائِفَ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ ، وَفَقَدَ كُلَّ أَمَلٍ فى نُصْرَةِ أَهْلِهَا . وَسَارَ يَضْرِبُ فى الصَّحْرَاءِ ، وَوِجْهَتُهُ مَكَّةُ الَّتِى غَادَرَهَا فِرَاراً مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَخَرَجَ مِنْهَا يَبْغِى جِوَارَ غَرِيبٍ غَيْرَ جِوَارِهَا ، وَيَنْشُدُ نَصْراً يُعَوِّضُ بِهِ خِذْلاَنَهَا ، فَلَمْ يَجِدْ مَا سَعَى إِلَيْهِ .

وَفى الطَّرِيقِ نَزَلَ مُحَمَّدٌ بِنَخْلَةَ : وَهِىَ مَحِلَّةٌ بَيْنَ الطَّائِفِ وَمَكَّةَ – لِيَسْتَرِيحَ ، وَفى هَدْأَةِ لَيْلَةٍ سَاجِيَةٍ ، وَفى جَوْفِ لَيْلٍ بَهِيمٍ – وَقَفَ مُحَمَّدٌ عَلَى رِمَالِ الصَّحْرَاءِ يُصَلِّى لِرَبِّهِ ! وَيُرَتِّلُ مَا شَاءَ أَنْ يُرَتِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَمَرَّ بِهِ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَاسْتَمَعُوا إِلَى مَا يَقْرَأُ وَأَنْصَتُوا إِلَى مَا يُرَتِّلُ ، فَسَمِعُوا عَجَباً ، وَوَعَوْا رَشَداً ، فَانْصَرَفُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَقَالُوا لَهُمْ :

« إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ، يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » .

وَلَمْ يَعْلَمْ مُحَمَّدٌ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ هَؤُلاَءِ الْجِنِّ الَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ اسْتِمَاعِهِمْ لَهُ

وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرآنَ فى جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، حَتَّى قَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ ، إِذْ أَوْحَى إِلَيْهِ :

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِن الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ . فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ » .

وَكَانَ خَبَرُ رَدِّ ثَقِيفٍ لِمُحَمَّدٍ ، وَمَا لاَقَى مِنْ إِساءَاتِ سِفْهَائِهَا قَدْ وَصَلَ إِلَى أَسْمَاعِ قُرَيْشٍ ، فَشَمِتَتْ بِهِ ، وَسَرَّهَا مَا أَصَابَهُ ، وَآلَتْ عَلَى نَفْسِهَا أَنْ تُحَارِبَهُ حَتَّى تَقْضِىَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَن يَعُودَ إِلَيْهَا مِنْ ثَقِيفٍ ، لأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ سُوءَ رَدِّهِمْ لَهُ يُضْعِفُ رُوحَهُ وَيُخَلْخِلُ عَزِيمَتَهُ ، فَيَسْهُلُ النَّيْلُ مِنْهُ ، وَالْقَضَاءُ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا انْصَرَفَ مُحَمَّدٌ مِنْ نَخْلَةَ ، وَأَتَى حِرَاءَ فى طَرِيقِهِ إِلى مَكَّةَ – الْتَقَى بِنَفَرٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَعَلِمَ مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ قُرَيْشٍ ، وَمَا أَضْمَرَتْهُ مِنْ مُحَارَبَتِهِ ، وَمَا بَيَّتَتْهُ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ : هَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّى رِسَالَةً أُرْسِلُكَ بِهَا ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : إيتِ الأَخْنَسَ بْنَ شُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ : هَلْ أَنْتَ مُجِيرِى حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى ؟

فَحَمَلَ الرَّجُلُ الرِّسَالَةَ ، وَذَهَبَ إِلَى الأَخْنَسِ ، وَبَلَّغَهُ مَا قَالَهُ لَهُ مُحَمَّدٌ .

قَالَ الأَخْنَسُ : إِنَّ الْحَلِيفَ لاَ يُجِيرُ عَلَى الصَّرِيحِ . وَرَفَضَ أَنْ يُجِيرَهُ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ بِحراءَ خَارِجَ مَكَّةَ ، وَبَلَّغَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الأَخْنَسِ .

فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : هَلْ تَعُودُ بِرِسَالَةٍ أُخْرى ؟

قَالَ الرَّجُلُ : نَعَمْ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : فَائْتِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ، وَقُلْ لَهُ : هَلْ أَنْتَ مُجِيرِى حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى .

فَلَمَّا أَتَى الرَّجُلُ سُهَيْلاً أَجَابَهُ :

إِنَّ بَنِى عَامِرِ بْنِ لُؤَىٍّ لا تُجيرُ عَلَى بَنِى كَعْبٍ .

فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِىِّ وأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ .

فَقالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : أَتَعُودُ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَاذهَبْ إِلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِىٍّ .

فَذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى المُطْعِمِ وَسَأَلَهُ : هَلْ يُجِيرُ مُحَمَّدًا ؟

أَجَابَ الْمُطْعِم : نَعَمْ ، فَلْيَدْخُلْ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ أَعَدَّ الْمُطْعِمُ نَفْسَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَأَوْلاَدَ إِخْوَتِهِ لِحِمَايَةِ مُحَمَّدٍ عِنْدَمَا يَدْخُلُ مَكَّةَ ، فَلَبِسُوا لِبَاسَ الْحَرْبِ ، وَتَقَلَّدُوا السُّيُوفَ ، وَامْتَشَقُوا الْحِرَابَ ، وَأَتَوُا الْكَعْبَةَ عَلَى الْمَلأِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا رَآهُمْ أَبُو جَهْلٍ قَالَ لِلْمُطْعِمِ : أَمُجِيرٌ أَمْ مُتَابِعٌ ؟

قَالَ الْمُطْعِمُ : بَلْ مُجِيرٌ .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ .

وَدَخَلَ مُحَمَّدٌ إِلَى مَكَّةَ ، وَقَدْ أَجَارَهُ الْمُطْعِمُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ .

فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَى الكَعْبَةِ للطَّوَافِ ، وَقُرَيْشٌ جُلُوسٌ بِأَنْدِيَتِهِمْ - قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِرِفَاقِهِ مِنْ بَنِى هَاشِمٍ مُتَهَكِّماً :

هٰذَا نَبِيُّكُمْ يَا بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ .

فَأَجَابَهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَكَانَ مِنْ بَنِى هَاشِمٍ ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ قُرَيْشٍ : وَمَا تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مِنَّا نَبِىٌّ أَوْ مَلِكٌ ؟ !

وَسَمِعَ مُحَمَّدٌ مَا قِيلَ ، فَأَتَى إِلَى الْقَوْمِ حَيْثُ يَجْلِسُونَ ، وَقَالَ لِعُتْبَةَ : واللَّهِ يَا عُتْبَةُ مَا حَمِيتَ للهِ وَلاَ لِرَسُولِهِ وَلٰكِنَّكَ حَمِيتَ لِنَفْسِكَ ! !

ثُمَّ وَجَّهَ الْقَوْلَ إِلَى أَبِى جَهْلٍ فَقَالَ :

أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلٍ فَوَاللهِ لاَ يَأْتِى عَلَيْكَ غَيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَضْحَكَ

قَلِيلاً وتَبْكِىَ كَثِيراً .

ثُمَّ وَجَّهَ خِطَابَهُ إِلَى الجَالِسِينَ مِنْ بَاقِى الْقَوْمِ قَائِلاً :

وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمَلأِ مِنْ قُرَيْشٍ فَوَاللهِ لاَ يَأْتِى عَلَيْكُمْ غيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَدْخُلُوا فِيمَا تُنْكِرُونَ وَأَنْتُم كَارِهُونَ .

وَانْصَرَفَ مُحَمَّدٌ عَنْ قُرَيْشٍ ، وَعَنْ دَعْوَةِ قُرَيْشٍ ، إِلَى دَعْوَةِ سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَأَتَاهُمْ فِى مَنَازِلِهِمْ ، ومَهَابِطِ رَوَاحِلِهِم ، وَجَاءَهُمْ فِى قُرَاهُمْ وأَسْوَاقِهِمْ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ نَبِىٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيَتَّبِعُوهُ ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يَنْصُرُوهُ وَيَمْنَعُوهُ ، حَتَّى يُبَيِّنَ مَا بَعَثَهُ بِهِ اللهُ ، وَيُظْهِرَ مَا أَرْسَلَهُ اللهُ لِيَدْعُوَ إِلَيْهِ .

وَفى إِحدى اللَّيَالِى نَامَ مُحَمَّدٌ فى دارِ بِنْتِ عَمِّهِ : هِنْدٍ بِنْتِ أَبى طَالِبٍ ، وَكَانَتْ مَشْهُورَةً بِأُمِّ هَانِئٍ . فَلَمَّا كَانَ قُبَيْلَ الْفَجْرِ هَبَّ مُحَمَّدٌ مِنْ نَوْمِهِ ، فَهَبَّ مَعَهُ أَهْلُ الدَّارِ ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أُمِّ هَانِئٍ فَقَالَ لَهَا :

يَا أُمَّ هَانِئٍ ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ الْعِشَاءَ الآخِرَةَ - كَمَا رَأَيْتِ - بِهٰذَا الْوَادِى . ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ . ثُمَّ قَدْ صَلَّيْتُ الآنَ مَعَكُمْ كَمَا

تَرَيْنَ .

وَدَهِشَتْ أُمُّ هَانِئٍ لِكَلَامِ الرَّسُولِ : كَيْفَ صَلَّى بِدَارِهِمْ عِشَاءً ، ثُمَّ صَلَّى بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِى جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ هَا هُوَ ذَا يُصَلِّى بَيْنَهُمُ الآنَ ؟ ! !

وَجَلَسَتْ أُمُّ هَانِئٍ إِلَى مُحَمَّدٍ تَسْتَوْضِحُهُ الأَمْرَ ، فَقَالَ لَهَا مُحَمَّدٌ :

يَا أُمَّ هَانِئٍ ؛ بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ شَعَرْتُ بِمَنْ يُنَبِّهُنِى مِنْ نَوْمِى ، فَانْتَبَهْتُ ، فَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ قَدْ شَقَّ سَقْفَ الْبَيْتِ ، وَنَزَلَ إِلَىَّ مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ تَعَوَّدْتُ مِنْ جِبْرِيلَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَىَّ مِنْ سَقْفٍ أَوْ مِنْ حَائِطٍ ، بَلْ أَجِدُهُ أَمَامِى حَيْثُ أَكُونُ . وَأَخَذَ جِبْرِيلُ بِيَدِى ، وَخَرَجَ ، وَأَخْرَجَنِى مَعَهُ ثُمَّ أَتَى بِى إِلَى مَوْضِعِ الْحَطِيمِ مِنَ الْكَعْبَةِ ، وَأَضْجَعَنِى ، وَشَرَحَ صَدْرِى بِأَنْ شَقَّهُ وَأَتَى بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ إِيمَاناً وَحِكْمَةً ، فَأَفْرَغَهُ فِى قَلْبِى ، ثُمَّ أَطْبَقَ صَدْرِى ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ بَيْضَاءَ ، دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ ، فَاعْتَلَيْتُهَا وَمَعِى جِبْرِيلُ ، فَمَا كَانَ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ خَطْفِ الْبَرْقِ – حَتَّى كُنْتُ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَصَلَّيْتُ هُنَاكَ

وَصَلَّى وَرائِى الأَنْبِيَاءُ فِيهِ .

وَأَنْصَتَتْ أُمُّ هَانِئ لِهٰذا الْحَدِيثِ الْعَجَبِ وَهِى دَهِشَةٌ مُعْجَبَةٌ . ونَظَرَتْ لِمُحَمَّدٍ نَظْرَةَ إِكْبَار ، ثُمَّ نَظْرَةَ إِشْفَاق ، وَقَالَتْ لَهُ : يَا بْنَ عَمٍّ ، لاَ تُحَدِّثْ بِذٰلِكَ أَحَداً فَيَكْذِبَكَ مَنْ صَدَّقَكَ ! !

قَالَ : بلْ سَأُحَدِّثُ بِذٰلِكَ قُرَيْشاً .

فَقَالَتْ أُمُّ هَانِئ : أَنْشُدُكَ اللهَ يَا بْنَ عَمٍّ أَلاَّ تُحَدِّثَ بِذٰلِكَ قُرَيْشاً فَيَكْذِبُوكَ ، وَيَنَالُوكَ بالضَّرر .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ : بَلْ لاَبُدَّ أَنْ أُحَدِّثَهُمْ بِذٰلِكَ .

وَغَادَرَ مُحَمَّدٌ أُمَّ هَانِئ لِيَأْتِىَ إِلى حَيْثُ مَجالِسُ قُرَيْشٍ ، فَلَمْ يَسَعْ أُمَّ هَانِئ إِلاَّ أَنْ تُرْسِلَ خَلْفَهُ جَارِيَتَهَا الْحَبَشِيَّةَ تَتْبَعُهُ لِتَأْتِيَها بِخَبَرِ مَا سَوفَ يَكُونُ .

وَجَلَسَ مُحَمَّدٌ إِلَى نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ لِيُحَدِّثَهُمْ بِمَا رَأَى ، وَلٰكِنَّهُ عادَ فَتَرَدَّدَ .

وَراجَعَ نَفْسَهُ فِيمَا يَكُونُ مِنْهُمْ وَتَساءَلَ : أَيُصَدِّقُونَهُ ؟ ! أَمْ يُكَذِّبُونَهُ ؟ !

ثُمَّ : أَيُحَدِّثُهُمْ حَدِيثَهُ كُلَّهُ ؟ ! أَيُخْبِرُهُمْ بِإِسْرائِهِ لَيْلاً إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؟ ! وَيُعْلِمُهُمْ بِمِعْراجِهِ إِلَى مَلَكُوتِ السَّماءِ ؟ ! أَمْ يَكْتَفِى بِأَنْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا عَرَّفَ بِهِ أُمَّ هَانِئٍ ؟ !

وَمَرَّ وَقْتٌ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ فِى مَجْلِسِهِ هٰذَا يَتَجَاذَبُهُ عَامِلاَنِ : عامِلُ الْفَرَحِ وَالاسْتِبْشَارِ وَالرِّضَا بِما حَباهُ بِهِ رَبُّهُ مِنْ نِعَمٍ ، حَيْثُ شَرَّفَهُ بِأَنْ أَسْرَى بِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ، وَأَكْرَمَهُ بِأَنْ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمٰواتِ الْعُلاَ ، حَيْثُ جَلاَلُ الْمَلَكُوتِ ، وَجَلالُ الْعَرْشِ . وَعامِلُ خَوْفِهِ إِذَا حَدَّثَ بِذٰلِكَ قُرَيْشاً فَسَخِرَتْ مِنْهُ وَكَذَّبَتْهُ ، وَهُوَ الَّذِى يَوَدُّ أَنْ يُبَيِّنَ لَهَا ما شَاهَدَ مِنْ عَظَمَةِ الْخَالِقِ ، وَيُظْهِرَ لَهَا ما شَاهَدَ مِنْ آياتِ اللهِ . وَأَوْقَعَ هٰذَا الْعامِلُ فِى نَفْسِ مُحَمَّدٍ قَلَقاً ، وَأَوْرَثَهُ حُزْناً وَغَمًّا ، فَجَلَسَ ساهِماً وَاجِماً عَلَى غَيْرِ عادَتِهِ إِذَا جَلَسَ بِالْكَعْبَةِ .

وَلاحَظَ الْجَالِسُونَ مَا بِمُحَمَّدٍ مِنْ سُهُومٍ وَوُجُومٍ عَلَى غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنْهُ ، وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَبُو جَهْلٍ وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ . فَلَمَّا رَأَى أَبُو جَهْلٍ ما يَبْدُو عَلَى مُحَمَّدٍ مِنْ حُزْنٍ وَقَلَقٍ نَهَضَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ :

ما بِكَ يا مُحَمَّدُ ؟ ! هَلْ مِنْ شَيْءٍ جَدِيدٍ ؟ !

وَجَدَ مُحَمَّدٌ فُرْصَةً لِلْكَلامِ ، فَقالَ :

نَعَمْ ، أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ .

فَسَأَلَهُ أَبُو جَهْلٍ : إِلَى أَيْنَ ؟ !

أجابَ مُحَمَّدٌ : إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

وَكادَ أَبُو جَهْلٍ أَنْ يَنْفَجِرَ ضاحِكاً هُزْءًا مِنْ قَوْلِ مُحَمَّدٍ ، وَلٰكِنَّهُ مَلَكَ نَفْسَهُ ، فَقَدْ وَجَدَ فِي هٰذَا الْقَوْلِ خَيْرَ سِلاحٍ لِتَحْطِيمِ مُحَمَّدٍ ، وَوَضْعِهِ مَوْضِعَ شَكٍّ ، وَجَعْلِ أَقْوالِهِ مَحَلَّ رِيبَةٍ .

فَقالَ لَهُ مُشَجِّعاً : أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ ، أَتُحَدِّثُهُمْ بِما حَدَّثْتَنِي ؟ !

قَالَ : نَعَمْ .

فَصَاحَ أَبُو جَهْلٍ يُنَادِى أَهْلَ قُرَيْشٍ :

يَامَعْشَرَ بَنِى كَعْبِ بْنِ لُؤَىّ .

فَانْفَضَّتَ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ تَسْتَطْلِعُهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ لِمُحَمَّدٍ :

حَدِّثْ قَوْمَكَ بِما حَدَّثْتَنِى .

فَشَرَعَ مُحَمَّدٌ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ بِبَعْضِ حَدِيثِه ، فَقَالَ :

لَقَدْ أُسْرِىَ بِى اللَّيْلَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى عَلَى ظَهْرِ دَابَّةٍ اسْمُها الْبُرَاقُ ، فَنُشِرَ لِى رَهْطٌ مِنَ الأَنْبِياءِ ، مِنْهُمْ : إِبْرَاهِيمُ ، وَمُوسَى ، وعِيسَى ، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ هُنَاكَ .

فَضَجَّ أَكْثَرُ الْحَاضِرِينَ بِالضَّحِكِ ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِمُحَمَّدٍ هازِئاً :

أَنُشِرَ لَكَ الأَنْبِياءُ مِنْ مَوْتِهِمْ ؟ ! صِفْهُمْ لَنا ! !

قَالَ مُحَمَّدٌ : أَمَّا عِيسَى فَهُوَ فَوْقَ الرَّبْعَةِ ، وَدُونَ الطَّوِيلِ ، عَرِيضُ

الصَّدْرِ ، ظَاهِرُ الدَّمِ ، أَصْهَبُ الشَّعْرِ ، وَأَمَّا مُوسَى فَضَخْمٌ آدَمُ (أَسْمَرُ) طَوِيلٌ . وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَوَاللهِ إِنَّهُ لأَشْبَهُ النَّاسِ بِى خَلْقاً وَخُلُقاً .

واسْتَوْلَى عَلَى الْقَوْمِ الذُّهُولُ ! مَا الَّذِى يَقُولُ مُحَمَّدٌ ؟ !

وَتَسَاءَلُوا : أَهُوَ حَقٌّ ، أَمْ كَذِبٌ وَخَلْطٌ ؟ !

فَمِنْهُمْ مَنْ أَعْظَمَ الأَمْرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَجِبَ وَدَهِشَ ، وَمِنْهُمْ مَنِ ارْتَابَ وَشَكَّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَ وَسَخِرَ ، وَأَسْرَعَ نَفَرٌ إِلَى بَيْتِ أَبِى بَكْرٍ صَدِيقِ مُحَمَّدٍ الْحَمِيمِ ، يُخْبِرُونَهُ هٰذَا الْخَبَرَ ! فَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ ، يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِىَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَهُوَ قَدْ قَالَ ذٰلِكَ ؟ !

قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : لَئِنْ قَالَ ذٰلِكَ لَقَدْ صَدَقَ .

قَالُوا : أَتُصَدِّقُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؟ !

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : نَعَمْ ، إِنِّى لأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذٰلِكَ : إِنَّهُ لَيُخْبِرُنِى أَنَّ

الْخَبَرَ يَأْتِيهِ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ فى سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَأُصَدِّقُهُ ، أَلَيْسَ هٰذا أَبْعَدَ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ ؟ !

وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مُحَمَّدٍ فى مَجْلِسِهِ بِالْكَعْبَةِ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لَهُ :

إِنَّ أَمْرَكَ يَا مُحَمَّدُ قَبْلَ الآنَ كَانَ أَمْراً يَسِيراً ، أَمَّا قَوْلُكَ الْيَوْمَ فَيَشْهَدُ أَنَّكَ كَاذِبٌ مُخْتَلِقٌ . إِنَّنَا لَنَضْرِبُ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ذَاهِبِينَ شَهْراً ، وَعَائِدِينَ شَهْراً ، وَتَزْعُمُ أَنْتَ أَنَّكَ ذَهَبْتَ إِلَيْهِ وَعُدْتَ مِنْهُ فى لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ ! وَاللاَّتِ وَالعُزَّى لاَ نُصَدِّقُكَ ، وَلاَكَانَ هٰذَا الَّذِى تَقُولُهُ قَطُّ .

فَبَادَرَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : إِنَّ مُحَمَّداً لاَ يَكْذِبُ ، أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ صادِقٌ .

فَقَالَ الْمُطْعِمُ : يَا مُحَمَّدُ ، صِفْ لَنَا بَيْتَ الْمَقْدِسِ .

وَفَطِنَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَا يَبْغِى الْمُطعِمُ مِنْ إِحْرَاجِ مُحَمَّدٍ فَطَلَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ أَنْ يَصِفَهُ لَهُمْ لِيَثْبُتَ صِدْقُهُ ، فَقَالَ لَهُ :

صِفْهُ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَإِنِّى قَدْ جِئْتُهُ .

فَجَعَلَ مُحَمَّدٌ يَصِفُ لَهُمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ الَّذِى لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ إِلاَّ فى إِسْرَائِهِ ، وَيُعَدِّدُ لَهُمْ مَعالِمَهُ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ صِفَتَهُ . وَالْقَوْمُ يَنْصِتُونَ إِلَى دِقَّةِ وَصْفِهِ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُمُ الدَّهْشَةُ وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى قَوْلِهِ وَقَدْ مَلَكَهُمُ الْعَجَبُ .

وَلٰكِنَّهُ ما كادَ يَنْتَهِى مِنْ وَصْفِهِ ، وَيَفْرُغُ مِنْ حَدِيثِهِ – حَتَّى عاوَدَتْهُمُ الْمُكابَرَةُ . فَقالُوا وَهُمْ يَهُزُّونَ رُءُوسَهُمْ مُتَشَكِّكِينَ :

لَقَدْ وَصَفَهُ لَكَ وَاصِفٌ ، هاتِ بَيِّنَةً واضِحَةً ، وَسُقْ إِلَيْنَا بُرْهاناً قَوِيًّا .

فَأَخَذَ مُحَمَّدٌ يَصِفُ لَهُمْ ما مَرَّ عَلَيْهِ فى مَسْرَاهُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ، وَيُخْبِرُهُمْ بِمَنْ صَادَفَ مِنَ الْعِيرِ ، وَبِما جَازَ مِنَ الْقُرَى ، وَبِما رَأَى مِنْ رَوَاحِلَ ، وَعَرَّفَهُمْ عَدَدَ الْقَوافِلِ الَّتِى سَتَفِدُ إِلَى مَكَّةَ ، وَالَّتِى شَاهَدَهَا هُوَ عَلَى مَسِيرَةِ أَيَّامٍ مِنْهَا ، وَوَصَفَ لَهُمْ أَحْمَالَهَا ، وَنَوْعَ دَوَابِّها .

فَقالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّنَا لا نُصَدِّقُ ما تَقُولُ إِلاَّ إِذَا سَأَلْنَا أَصْحَابَ هٰذِهِ الْعِيرِ الَّتِى ذَكَرْتَ ، وَعَرَفْنَا مِنْهُمْ أَيْنَ كَانُوا فى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَرَأَيْنَا بِأَعْيُنِنَا ما تَصِفُ

مِنْ صِفاتِهِمْ ، وَما تَذْكُرُ مِنْ عَلاماتِهِمْ .

عِنْدَئِذٍ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَقَدْ صَدَقْتَ يَا رَسُولَ الله .

وَأَطْرَقَ الرَّسُولُ بُرْهَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَى أَبِى بَكْرٍ وَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، لَقَدْ دَعَاكَ الله الصِّدِّيقَ .

وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ ، وَلاَ حَدِيثَ لَهُمْ إِلاَّ حَدِيثُ مُحَمَّدٍ عَنْ إِسْرائِهِ ، وَمَبْلَغُ ما يَحْمِلُ هٰذَا الْحَدِيثُ مِنْ صِدْقٍ وَكَذِبٍ .

وَلَمْ يَمْضِ قَلِيلٌ مِنَ الأَيَّامِ ، حَتَّى وَفَدَتْ عَلَى مَكَّةَ الْقَوافِلُ الَّتِى اسْتَشْهَدَ بِها مُحَمَّدٌ ، فَكانَتْ أَحْمالُها كَمَا وَصَفَ ، وَدَوَابُّها كَمَا ذَكَرَ .

وَلٰكِنَّ الْمُكابِرِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عادُوا إِلَى مُكابَرَتِهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى عِنادِهِمْ ، وَهَزُّوا رُءُوسَهُمْ قَائِلِينَ :

لَقَدْ صَدَقَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ حِينَ قَالَ عَنْ مُحَمَّدٍ : إِنَّهُ سَاحِرٌ ، فَهَا قَدْ تَأَيَّدَ وَصْفُهُ ، وَصَدَقَ قَوْلُهُ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ فَقَدْ كَانَتْ حَادِثَةُ الإِسْرَاءِ فَيْصَلاً فَصَلَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ اسْتَمْكَنَ الإِسْلامُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَمْكِنِ الإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ : فَالأَوَّلُونَ زَادَ حَدِيثُ الإِسْرَاءِ إِيمَانَهُمْ رُسُوخاً ، وَزَادَ صُدُورَهُمُ انْشِرَاحاً . وَالَّذِينَ كَانَ فِى قُلُوبِهِمْ شَكٌ وَفِى إِيمَانِهِمْ ضَعْفٌ ، ارْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ وَقَدْ رابَتْهُمْ مِنْ دَعْوَتِهِ الرِّيبُ ، وَظَنُّوا بِهِ الظُّنُونَ .

جَلَسَ مُحَمَّدٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الثَّابِتِينَ يَتَحَدَّثُ بِأَعْظَمِ مَا حَبَاهُ اللهُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ ، وَيَقُصُّ أَعْظَمَ مَا خَصَّ اللهُ بِهِ رَسُولاً ، حَدَّثَهُمْ عَنْ مِعْرَاجِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا شَاهَدَ مِنْ عِظَمِ آيَاتِ اللهِ ، وَرَوَى لَهُمْ كَيْفَ صَحِبَهُ جِبْرِيلُ حَتَّى صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الأُولَى ، وَهُنَاكَ شَاهَدَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ يَضْحَكُ مُسْتَبْشِراً إِذَا نَظَرَ إِلى يَمِينِهِ حَيْثُ يَرَى فِعْلَ أَبْنَائِهِ الصَّالِحِينَ ، وَيَبْكِى حُزْناً إِذَا نَظَرَ إِلَى يَسَارِهِ حَيْثُ يَرَى فِعْلَ أَبْنَائِهِ الْفَاسِقِينَ .

وَرحَّبَ آدَمُ بِمُحَمَّدٍ بِقَوْلِهِ :

مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ .

فَسَأَلَ مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ : مَنْ هٰذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ !

أَجَابَهُ : هٰذَا آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ .

وَعَرَجَ جِبْرِيلُ بِمُحَمَّدٍ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، ثُمَّ الثَّالِثَةِ ، ثُمَّ مَا زَالَ يَعْلُو بِهِ وَهُوَ يَمُرُّ عَلَى الأَنْبِيَاءِ فَيُحَيُّونَهُ بِقَوْلِهِمْ :

مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ .

حَتَّى وَصَلَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، وَهُنَاكَ شَاهَدَ مُحَمَّدٌ أَبَا آبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ .

فَحَيَّاهُ إِبْرَاهِيمُ بِقَوْلِهِ : مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ .

ثُمَّ عَلاَ جِبْرِيلُ بِمُحَمَّدٍ وَعَلا ، فَجَازَ جَمَالاً ، وَجَازَ جَلاَلاً ، بَيْنَ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَسْجُدُونَ وَيُسَبِّحُونَ ، حَتَّى ارْتَفَعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَقَدْ غَشِيَ السِّدْرَةَ مِنَ الأَلْوَانِ وَالأَضْوَاءِ مَا يَغْشَى ، ثُمَّ عَلاَ مُحَمَّدٌ نَحْوَ الْعَرْشِ ،

بَيْنَ آيَاتٍ يَعْجَزُ فَهْمُ الإِنْسَانِ عَنْ إِدْرَاكِهَا ، وَيَقِفُ لِسَانُهُ عَنْ وَصْفِهَا ، حَتَّى إِذَا مَا كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، أَحَسَّ مُحَمَّدٌ بِقُشَعْرِيرَةٍ تَسْرِى مُنْسَابَةً فى جِسْمِهِ ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ رُوَيْداً رُوَيْداً إِلَى رَاحَةٍ عَذْبَةٍ ، وَسَكِينَةٍ رَاضِيَةٍ ، وَخَدَرٍ مُسْتَطَابٍ .

ثُمَّ جَاءَ مُحَمَّداً أَمْرُ اللهِ فَفَرَضَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ خَمسِينَ صَلاَةً وَعَادَ مُحَمَّدٌ حَتَّى مَرَّ بِالنَّبِىِّ مُوسَى ، فَسَأَلَ مُوسَى مُحَمَّداً :

مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِكَ ؟

قَالَ مُحَمَّدٌ : فَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِى خَمْسِينَ صَلاَةً .

قَالَ مُوسَى : فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، وَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ .

فَعَادَ مُحَمَّدٍ ، وَرَاجَعَ رَبَّهُ ، فَوَضَعَ عَنْهُ شَطْرَهَا ، فَلَمَّا عَادَ إِلَى مُوسَى وَأَعْلَمَهُ قَالَ :

ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذٰلِكَ .

فَرَجَعَ مُحَمَّدٌ فَرَفَعَ عَنْهُ شَطْرَهَا ، فَعَادُ إِلى مُوسَى فَقَالَ :
ارْجِعْ فَاسْأَلِ التَّخْفِيفَ ثَانِياً .
فَعَادَ مُحَمَّدٌ فَفَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ وَقَالَ اللهُ :
هِيَ خَمْسٌ وهِيَ خَمْسُونَ ، لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ .
وَانْقَضَتِ اللَّيْلَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَمُحَمَّدٌ يُحَدِّثُهُمْ بِمَا رَأَى مِنْ جَمَالٍ ، وَمَا شَاهَدَ مِنْ جَلاَلٍ فِى السَّمَوَاتِ وَيَقُصُّ لَهُمْ مَا شَاهَدَهُ فِى جَنَّةِ اللهِ الَّتِى وَعَدَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ ، وَيُرِفُ لَهُمْ بُشْرَى مَا يَنْتَظِرُهُمْ فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ .
أَمَّا الْمُرْتَدُّونَ فَقَدْ جَاءَ فِيهِمْ :
« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ » .

رقم الإيداع	١٩٨٠/٣٩٠٨
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٤-٦١-٣

١/٨٠/٢٨٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)